أجمع الشعراء وفلاسفة التربية ورؤساء الديانات على أن للطبيعة تأثيراً عجيباً فى الانسان وأن جمال الطبيعة يبعث فيه أفكاراً عالية لو أبرزها للعالم لساعدت على رفع شأنه . فالطبيعة هى التى انطقت القدماء بسحر البيان فأخرجوا آيات استلبت قلوب قارئيها . وهى التى ما نكاد نشعر بتأثير سكونها عند غروب الشمس واستيقاظها عند بزوغها حتى نقول « سبحان الخلاق العظيم » :

ورد ذكره العصر

عقلية الطفل

سلسلة مقالات عن عقل الطفل وحياته

(١)

طفولة الانسان

اذا قارنا طفولة الانسان بطفولة الحيوانات الأخرى وجدنا بينهما فارقاً فى أمرين محسوسين هما : —

(١) طول مدة طفولة الانسان وقصر طفولة الحيوان

(٢) عجز الانسان فى طفولته عن القيام بأمور نفسه . وقدرة الحيوان على القيام بأمور نفسه من مبدأ حياته . فصغار السمك لا تختلف عن كباره فى أنها تقوم بجميع أعمالها الحيوية بنفسها من تحصيل غذاء وسباحة فى الماء وغير ذلك . وأفراخ الطير تبلغ سن الرشد بعد اشهر قليلة من فقسها . وهى تولد قادرة على التقاط الطعام وعلى الطيران بعد خبرة وجيزة . وكذلك العجل

والحمل وغيرهما من صغار الحيوان يمكنها ان تركض بجانب امها قبل ان يبلغ عمرها بضعة ايام

اما الطفل فيبقى عاجزاً عن القيام بأقل الأعمال لنفسه لعدة شهور. معتمداً على الغير فى حاجياته لعدة سنوات. ولا يبلغ سن الرشد إلا بعد ما يقرب من العشرين عاماً بعد مولده. وبينما الحيوان يولد بالقدرة على العمل يولد الانسان بالقدرة على مجرد تعلم العمل

وقد وجد بالمقارنة انه كلما كان الحيوان عاجزاً فى صغره كلما طالت مدة طفولته وفى مقابل ذلك كلما طالت طفولته كلما زادت قابليته للتعليم وطالت مدتها. وكلما طالت مدة قابليته للتعليم كلما زاد مقدار ذكائه ومقدرته العقلية

فالطفل أعجز الحيوانات صغيراً وأطولها طفولة ولكنه أعظمها قابلية للتعليم وقد ميز عنها بالمقدرة العقلية وبقوة الذكاء

الحكمة فى طول مدة طفولة الانسان

إن بنية الحيوانات الوضيعة أتم تركيباً ونمواً عند الميلاد منها فى الحيوانات الراقية. حيث تولد ببنية تتحرك وتعمل حسب بواعث معلومة تنشأ عن غرائز المحافظة على البقاء وتعمل على القيام بحاجيات المعيشة فالسمك مثلاً يعيش فى بيئة ثابتة هى الماء فلا تحدث به تغييرات عظيمة ولا يعوزه الا عدة حركات بسيطة يحصل بواسطتها على الغذاء وعلى تجنب الأعداء

أما الحيوانات الراقية فتولد ناقصة وببنية قابلة للتغيير وللتعديل. وذلك لأن البيئة التى تعيش فيها مركبة وغير ثابتة بل إنها متغيرة فهى تختلف حسب المكان وحسب فصول السنة. ولكل صورة من صور تلك البيئة

نمط خاص للمعيشة فيها . فمن المحال أن يولد الحيوان الراقى الصغير بنية مجهزة تامة يعيش بها فى تلك البيئة المركبة المتغيرة . إذ أن طريقة عملها وحركتها تكون ثابتة بينما أن الأحوال التى تعمل فيها غير ثابتة . لذلك قضت الحكمة الالهية أن تولد الحيوانات الراقية ناقصة النمو حتى تكون لها قدرة على التكيف بالاختبار ومطابقة نفسها لبيئتها التى ولدت فيها فتنمو نمواً ملائماً لتغيرات تلك البيئة

فالطفولة هى مدة تتمة تركيب البنية ونموها وتأهيلها للقيام بالأعمال المناسبة لأشكال البيئة المختلفة وتعلم القيام بحاجيات المعيشة

فالانسان اذن اقدر الحيوانات على تعديل نفسه طبقاً لأحوال الحياة المختلفة فهو يعيش فى الصيف والشتاء وفى الربيع والخريف . وفى الأجواء الحارة والباردة . وعلى الجبال وفى الأودية . وفى الصحراء والسهول . كما انه يتعود العادات الحديثة ويتخلق بالأخلاق الجديدة . ويتغلب على أحوال العالم الشديدة بسهولة مدهشة وذلك لأنه يولد ناقص النمو . ولأن مدة طفولته تزيد عن مدة طفولة الحيوانات الأخرى . ولأنه قابل للتعليم ولتعديل نفسه بالاختبار لمدة طويلة . فقد اتفق معظم العلماء بأن الانسان لا يتم نموه الجسمى الا بعد ٢٥ عاماً . ولا يتم نموه العقلى الا بعد ٣٥ عاماً ولا تنعدم قوة التعلم عنده إلا بعد الستين عاماً

ومما يتقدم نستنتج السبب لطول مدة الطفولة عند الأمم المتمدينة عنها عند الأمم الهمجية فانه كلما تقدم الانسان فى الحياة كلما صارت بيئته ومعيشته مركبة ومتغيرة . فالمدنية تنتج من العلوم الحديثة ومن الآلات ومن العلاقات الاجتماعية ما يزيد مقدار ما يتعلمه الطفل حتى يصير ملماً بكل شىء . وهذا

يستلزم مدة طفولة طويلة لتنتج إنساناً لا أقول ملائماً لبيئته فقط بل وأيضاً عالماً بها وقادراً على التغلب عليها وقهرها. فكلما زادت زخارف تركيب الحياة الميكانيكي كلما صارت عملية تعديل النفس للبيئة اصعب على الجيل الحديث. وكلما طالت مدة الطفولة زاد عجز الطفل أثناءها

وهناك حكمة اخرى لطول مدة طفولة الانسان: ذلك أن عجز الأطفال يقوي الرابطة بين الوالدين ويكون سبباً في توطيد دعائم الحياة العائلية التي هي أساس الحياة الاجتماعية. ومع كل ما ذكر فهناك حد لطفولة الطفل وعجزه عن القيام بأمره بنفسه. فإذا ما أزف الوقت الذي يجب فيه أن يخرج الطفل من دور الطفولة وجب أن يشارك من هم اكبر منه سناً في المجاهدة للبقاء وفي حمل مسئولية الحياة وأثقالها. والا فبتعدي الطفولة حدها المحدود يصير العجز ملازماً للانسان كعادة ترسخ في نفسه وينشأ عن ذلك فناء النوع

وهناك بين جميع صغار الانسان من لا يبلغ الرشد. ومن يظل عاجزاً طول حياته بالأمراض والعاهات. فكيف يعامل الأقوياء مثل هؤلاء الضعفاء؟ ان الطبيعة قاسية فقلما تساعد من يعجز عن رد المثل لها. ولكن فكر الانسان وشعوره قد ارتقيا فاصبح لا تقتصر عنايته على الأطفال بل صار يعتني أيضاً بالعمي والبله والمجانين. واليوم تراه يعتني بالمجرمين فهو بذلك يجد راحة في حماية وتربية من لا يوفونه شيئاً نظير أتعابه ويعمل لهم لا بأمل انهم يصلون الى درجة من الاستقلال الشخصي بل لانهم من نوعه والرابطة الاجتماعية تلزمه بأن يعتني بهم ويرعاهم طول حياتهم اذا احتاج الأمر لذلك

املى عبد المسيح